البناء
السنة السادسة / الأربعاء / 18 آذار 2015 / العدد 1736
Sixth year / Wednesday / 18 March 2015 / Issue No. 1736

الأوهام الأميركية حول سورية

■ حميدي العبدالله

اعتاد خصوم الرئيس الأميركي باراك أوباما داخل الولايات المتحدة، سواء أعضاء في الحزب الجمهوري مثل السيناتور «جون ماكين»، أو عناصر من داخل الإدارة من الذين يؤيدون الكيان الصهيوني، توجيه انتقادات حادة إلى إدارة أوباما وتوجيه الاتهام لها باللين وقلة الحزم في التدخل في سورية، إنْ لجهة التدخل العسكري المباشر، أو لجهة تقديم دعم واسع للجماعات المسلحة، ولكن من الواضح أنّ هذه الاتهامات لا تستند إلى أيّ أساس، وهي أقرب إلى المزايدات في إطارٍ التنافس الحزبي منه إلى صراع الخيارات. صحيح أنّ الحزب الجمهوري عموماً يتبنى سياسة أكثر تطرّفاً، ويدعو إلى استخدامٍ القوة للحفاظ على مكانة الولايات المتحدة في العالم، ولكن الصحيح أيضاً أنّ الحزبين، الجمهوري والديمقراطي، يلتزمان الدفاع عن المصالح الأميركية، وهذه المصالح تحدّدها المصالح الاقتصادية ومصالح الشركات على وجه الخصوص. والمصالح هي التي ترسم السياسات الفعلية والممارسات التي تقوم بها الإدارات الأميركية، سواءً كانت جمهورية أو ديمقراطية، أما المزايدات السياسية فهي في إطار التنافس على السلطة وليس لها تأثير كبير على الخيارات.

المثال الساطع الذي يؤكد هذه الحقيقة هي سياسة الولايات المتحدة الأميركية في سورية. ففي الوقت الذي وجّه الكونغرس انتقادات حادة إلى إدارة الرئيس أوباما على سياستِها في سوريةٍ، حيث أحجمت عن التدخل العسكري المباشر، ولم تقدّم دعماً عسكرياً واسعاً للجماعات المسلحة، سارع الكونغرس في خريف عام 2013 إلى عدم الاستجابة لطلب الرئيس أوباما من الكونغرس تشريع شنّ ضربة عسكرية ضدّ سورية، على عكس مزايدات قادة الكونغرس، الجمهوريين والديمقراطيين، على إدارة أوباما.

مثال آخر يعكس المزايدات والأوهـام التي تحكم سلوك عناصر النخبة الأميركية هو المقال الأخير الذي نشره السفير الأميركي السابق في دمشق، ومبعوث الرئيس أوباما لدى المعارضة السورية، روبرت فورد، في فصلية «فورين أفيرز» الأميركية، حيث أنّ المقال تضمّن انتقادات حادّة لإدارة أوباما في سورية، ولكن عندما قدَّم اقتراحات لتحديد السياسة المطلوبة، عاد إلى تبنّي ما تمارسه إدارة أوباما منذ بداية الأزمة، مع تغيير ملموس يعكس تبدّد الأوهام الأميركية حول سقوط الدولة السورية والقضاء على الجيش العربي السوري، فالاقتراحات الستة التي جاءت في مقال فورد هي عكس انتقاداته للإدارة إذ يقترح:

أن تطيع الجماعات المسلحة التي تتلقى مساعدات من القيادة المركزية الحديثة المنشأ، أوامر هذه القيادة فقط.

أن توقف المعارضة المسلحة الأعمال الوحشية ضدّ المجتمعات المدنية التي تدعم نظام الأسد، وأن تتحمّل قيادة المعارضة المسلحة مسؤولية أعمال الجماعات المكوّنة لها.

قطع جميع العلاقات مع «جبهة النصرة».

أن تكرّر قيادة المعارضة المسلحة باستمرار أنها لا تسعى إلى تدمير المسيحية والعلوية، أو أيّ من الأقليات الأخرى، وأن تبدي استعدادها للتفاوض بشأن ترتيبات الأمن المحلية، والتي يجب أن تتضمّن عناصر الجيش العربي السوري، لحماية جميع السوريين.

التفاوض على اتفاقٍ سياسي وطني لإنهاء الصراع، من دون أن يكون رحيل الأسد شرطاً مسبقاً.

أي ائتلاف سياسي يدّعي أنه يقود المعارضة ويمتلك تمثيلاً حقيقياً، يجب أن يكون ضمن مكوّناته أقليات ورجال أعمال كبار في سورية، وهي المجتمعات التي تدعم حكومة الأسد عموماً، وألا يعتمد هذا الائتلاف، بشكل أساسي، على المغتربين.

ومن يدقق في هذه الاقتراحات يجد أنها أقلّ قوة واندفاعاً من سياسة إدارة أوباما في سورية، وبالتالي فانتقاد هذه السياسة الذي جاء في مقدّمة مقاله، هو مزايدة سياسة لا أكثر ولا أقلّ.

في لبنان... استدارة ولا سفير للإدارة

■ روزانا رمّال

انفجرت القنبلة النووية الأميركية قبل الشروع باللقاء بين الخارجيتين الأميركية والإيرانية في لوزان، وتمثلت بإقرار أميركي بوجوب التفاوض مع الرئيس بشار الأسد بعد مرور أربع سنوات تماماً على بدء الأزمة السورية، ما فهم انعطافة أميركية نحو الأسد أو استدارة في الموقف الغربي.

تصريح كيري المؤلم لكلّ الذين راهنوا على سقوط الأسد، من أرفع رؤساء الدول طيلة السنوات الماضية، قوبل بحملات شجب واستنكار وغضب من حلفاءِ الولايات المتحدة أينما حلوا في الشرق الأوسط، الأمر الذي كانت تدركه مسبقاً الإدارة الأميركية التي سارعت الى تخفيف وطأة تصريح كيري المدوّي قدر الممكن ليأتي على لسان جين بساكي المتحدثة باسم الخارجية الأميركية كلام خجول في هذا الإطار يفيد أنّ أميركا لا تزال تعتقد أن لا حلّ سياسياً في ظلّ وجود الأسد، وهي التي لم تقل «تصرّ» هذه المرة.

بطبيعة الحال لا يهمّ إدارة أوباما كثيراً أيّ استنكار أو شجب أو حتى دهشة، لكن الدهشة الحقيقية التي لا يمكن أن تؤخذ في الاعتبار هي رفضِ الفرنسيين لكلام كيري على لسان وزير الخارجية الفرنسي لوران فابيوس أيضاً، وهو نظير كيري في المهنة، وأشرفت وزارته منذ أسابيع قليلة على زيارة وفدٍ برلماني فرنسي رفيع المستوى إلى دمشق ولقائه بالأسد، وقد ضمّ مقرّبين جداً من الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند.

على ايّ حال فإنّ الوفدين الفرنسي والأميركي الى دمشق أشارا منذ انعقاد لقاءاتهما مع القيادة السورية الى انّ شيئاً جديداً يحصل وأنّ الانعطافة الغربية باتت أقرب من أيّ وقت مضى، وتشير المعلومات التي تحدّثت عن تنسيق سوري - أميركي في بعض الضربات في الأجواء السورية على «داعش» إلى أنها كانت بداية القناعة الأميركية بحتمية بقاء الأسد بقوة جيشه وسيطرته على المعارك الرئيسية، وبالتالي بات على الجوار أن يتقبّل هذه الحقيقة قريباً.

بالنسبة إلى سورية فإنها اليوم على تماس أو علاقة غير مفهومة وواضحة مع الحكومة اللبنانية التي تنأى بنفسها عما يجري في دمشق، والتي وإنْ ضمّت أفرقاء من كافة الأطراف السياسية اللبنانية لا تزال تعتبر أنها غير معنية بأيّ كلام يصدر من خارج الحدود، إلا أنّ الحدود الأميركية فاجأت اللبنانيين هذه المرة، خصوصاً فريق الرابع عشر من آذار بمغادرة سفيرها في بيروت دايفيد هل البلاد في خطوة لا شك محسوبة من قبل سيد الخارجية الأميركية جون كيري الذي يحرص على إرسال إشارات إلى حلفاء إيران على ما يبدو اينما حلوا.

لبنان اليوم في زمنِ الاستدارة خال من الإدارة لسفارة الولايات المتحدة في عوكر التي حرصت دائماً على التنسيق الكامل مع مسؤولي فريق 14 آذار كحلفاء او أصدقاء طبيعيّين، وبالتالي يبدو أنّ المجلس الوطني لهذا الفريق هو آخر النصائح الأميركية قبل مغادرة دايفيد هل لبنان.

وعليه، إذا كانت الخارجية الأميركية قد طلبت مغادرة سفيرها وعودته إلى بلاده قبل ان يتمّ تعيين آخر، فإنّ هذا يعني أنّ السفير الجديد سينتظر بعض الوقت او ربما أكثر مما هو متوقع لكي يقدّم أوراق اعتماده إلى رئيس الجمهورية اللبنانية المقبل الذي من غير المعروف متى سيبصر انتخابه النور، وبالتالي فإنّ المرحلةِ المقبلةِ في بيروت في زمن الاستدارة الأميركية من دون سفيرٍ ستحدث إرباكاً متوقعاً لدى أصدقاء السفارة أينما حلوا، والولايات المتحدة تحديداً التي تعرف أنّ لبنان بلا رئيس جمهورية اليوم، وتعرف أيضاً أنها تترك الساحة خالية لحزب الله أو لإيران وحلفائها في لبنان لحسم الاستحقاقات.

فهل هذه الاستدارة مقصودة؟ وكيف يمكن أن تصبح الأجواء في زمن الاستدارة اذا شغرت من رأسها؟

في زمن الاستدارة لبنان بلا «إدارة»...!

«توب نيوز»

حلف الخائفين من سقوط «داعش»

– لم يكن النقاش خلال الأشهر الماضية بين قوى حلف المقاومة وخصومها إلا حول حجم تقدير مخاطر «داعش» وكيفية مواجهة هذا الخطر.

– كان الرهان على مَن يحتاج مَن في هذه المعركة، والسؤال عن ماهية الحلف الكبير الذي سيضمّ الفريقين المتخاصمين وشروط التنازلات المتبادلة بينهما التي يفترضها قتال هذا العدو المشترك.

– واشنطن وحلفاؤها يسعون:

– لإثبات قدرتِهم منفردين على إنهاء «داعش» عبر حلف يستثني حلف المقاومة، بل يضع شروطاً عليه مثل سنسلح معارضة سورية تقاتل «داعش» وسورية في وقت واحد وفشلوا.

– لتضخيم قوة «داعش» كقوة تحتاج سنوات وقدرات لإنهائها كما قال أوباما لفرض شروطهم.

– لابتزاز حلف المقاومة بتقديم غطاء طائفي للحرب تشترك فيه السعودية وتركيا وتقديم السلاح الذي بدا أنّ الجيش العراقي يحتاجه ليصمد في وجه «داعش».

– اختبر حلف المقاومة في العراق قدرته السياسية والعسكرية بعدما استخدم قدرته الرادعة في مزارع شبعا في وجه «إسرائيل» فظهرت قوة «داعش» الحقيقية.

– أثبتت حرب تكريت معادلة جديدة تخشى فيها أميركا وحلفاؤها سقوط «داعش»، لأنّ خشبة خلاصهم «داعش» يساومون عليها.

التعليق السياسي

العروبة والتحدي الأميركي ـ الصهيوني*

■ صفية أنطون سعاده

من الضروري تبيان خصائص العروبة في سورية الطبيعية لأنها تختلف عن باقي دولِ العالم العربي للأسباب التالية:

أولاً، لقد تمّ تقسيم سورية الطبيعية من قبل البريطانيين والفرنسيين تنفيذاً لاتفاق سايكس– بيكو، وهذا لم يحدث بالنسبة إلى الدول العربية الأخرى. ولأنّ التقسيم اصطناعيّ، ظلّ الواقع على الأرض يعكس حقيقة الوضع ألا وهو أنّ أيّ مساس بأيّ كيان من كيانات سورية سيؤذي لا محالة الكيانات الأخرى. لقد كان الرئيس حافظ الأسد واعياً لهذه المفارقة، لذلك اعتبر أنّ حرب الخليج الأولى لن تضرّ العراق فقط بل بلاد الشام أجمع [1]. وقام بالتدخل في لبنان مع بداية الحرب الأهلية عام 1976 للأسبابٍ نفسها، وخوفاً من أن يطال الحريق سورية.

ثانياً، لم يكن التقسيم فقط من أجل إحكام قبضة المستعمر، والمعروف أنّ هذه السياسة اتبعتها الامبراطورية البريطانية في كلّ مستعمراتها على أساس المقولة الشهيرة: «Divide and Rule» (قسّم وأحكُم)، بل أنّ سبب تقطيع سورية الأساسي هو تدمير مجتمعها المتآخي كما كان قبل الحرب العالمية الأولى، وتحويلها الى كيانات طائفية ومذهبية. عمل الفرنسيون والبريطانيون على إقامة مناطق تمييز طائفي – عنصري، فلم تكن التقسيمات الجغرافية عشوائية لأنهم أرادوا أن يتبلور تيار من الكراهية وعدم الثقة بين سكان سورية، فتنتفي أية إمكانية لإيجاد قواسم مشتركة تؤدّي إلى بناء المواطنة. وأظهرت الدراسة الموثقة التي قامت بها لجنة كينغ – كراين الأميركية عام 1919، أنّ سكان بلاد الشام في غالبيتهم المطلقة أيدوا البقاء كوحدة جغرافية ورفضوا التجزئة.

نجح الفرنسيون في سلخ محافظات سورية وضمّها إلى جبل لبنان الذي أرادوا أن تكون رئاسته مسيحية – مارونية، كما أنهم بادروا الى تحويل ما تبقّى من سورية الى مقاطعات سنية ودرزيةٍ وعلوية، لكنهم فشلوا في ذلك.

ثالثاً، وهذا الأهـمّ، هدفَ «التقطيع» الطائفي الى إضفاء الشرعية للاستيطان اليهودي الغربي لأرض فلسطين، أو سورية الجنوبية كما كانت تُسمّى آنذاك. فاليهود يمثلون ديناً كما الطوائف المسيحية والمذاهب الإسلامية. وهكذا تضمحلّ الدولة القومية المبنيّة على أساس حماية حدودها الجغرافية، والذوْد عن مجتمعها المكوّن من مواطنين متساوين بمعزل عن دينهم أو معتقدهم أو عرقهم أو جندرهم، لتفتح المجال أمام طوائف وأديـان تتصارع، ونحن نعرف أن لا حدود جغرافية للأديان بل فقط للدولة القومية. فالدين كالثقافة ينساب من ضفة الى أخرى.

قلائل من السياسيين والمفكرين العرب تنبّهوا آنذاك إلى أنّ المستوطنين الصهاينة يحملون ايديولوجية إنشاء دولة «قومية يهودية» تقتلع أهلها الاصليين تحت العنوان العنصري نفسه الذي على أساسه أقامت سايكس – بيكو الكيانات الطائفية.

رابعاً، بالإضافة إلى التقسيم الطائفي، عمد المستعمر الغربي إلى تحجيم المساحة الجغرافية لبلاد الشام وأعطى لواء الاسكندرون لتركيا عام 1939.

خامساً، إذا نظرنا إلى الخريطة الجغرافية لبلاد الشام قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها، لوجدنا أنّ التقسيم الذي لحق بسورية هو تقسيم جيو – استراتيجي، فالاسكندرون ولبنان الكبير والكيان الصهيوني تطلّ جميعها على البحر الأبيض المتوسط. بكلمات أخرى سُلبت سورية من قوتها المتأتية من امتدادها البرّي كما من مكانتها كقوة بحرية تمسك بشاطئ المشرق العربي بأكمله، مما لذلك من تبعات كارثية ليس فقط على الصعيد السياسي، بل الاقتصادي والاجتماعي أيضاً.

1 ـ مواجهة التحدي الصهيوني والأميركي في المضمار السياسي والعسكري

انّ الصراع الدائر في سورية وحولها، سيقرّر ليس فقط مصيرها، بل مصير الدول الكبرى للعقود القادمة. فهل ستظلّ الولايات المتحدة الأميركية مهيمنة على العالم؟ هل ستنتهي هذه الحرب وقد تغيّر وجه التاريخ من أحادية الى تعدّدية في الأقطاب؟ وفي هذه الحال ما هو مصير الكيان الصهيوني؟ فمن المعروف من أمثلة التاريخ أنّ المستعمرات والمستوطنات تدوم طالما الدولة الأمّ تمدّ المستوطنة بالمال والسلاح، أما في حال تراخيها، تتلاشى المستعمرة.

إنّ منطقة الهلال الخصيب في وجه العاصفة الصهيونية. كانت كذلك منذ نشأة «اسرائيل»، لذلك قرّر الغرب الاستعماري تقسيمها، كما أنها مركز الصراع لأنّ حلم «إسرائيل الكبرى» الاستيلاء عليها لا السيطرة على منطقة أخرى. إنه صراع وجود لا مكان فيه لأنصاف الحلول، فإما أن نكون أو تكون «إسرائيل». ولقد عملت الولايات المتحدة الأميركية ما بوسعها لدعم هذه الأخيرة منذ الحرب العالمية الأولى كما تؤكد لنا الباحثة اليسون وير [2].

لن تتوقف الحروب ضدّ سورية الطبيعية طالما المستعمرة الصهيونية على قيد الحياة، فهي تريد أرضنا وخيراتنا وحتفنا.

يبدو لي أنّ مآل هذه الحرب بالذات يؤذن بانكسار الهجوم الأميركي، وانحسار المدّ الغربي، فمنذ بداية الأحداث عام 2011 تبيّن أنّ الولايات المتحدة الاميركية كما «اسرائيل» عاجزتان عن إرسال جنودهما الى ساحة الحرب، واستُعيض عن ذلك بالطلب من الحلفاء تجنيد قوات إسلامية متشدّدة من إخوان مسلمين الى وهابية تكفيرية تفتعل فتنة دينية – مذهبية على أرض سورية. فمن موّل وسلح وبعث بالتكفيريّين هم دول الخليج (وخاصة السعودية وقطر)، وتركيا. ولقد برهنت الأحداث أنّ سايكس – بيكو نجح في دق اسفين بين الأردن ولبنان من جهة، وسورية من جهة أخرى، إذ أنّ هاتين الدولتين وبدلاً من العمل لإطفاء الحريق المنتشر في الجوار، عمدتا الى تسهيل مرور الإرهابيين وسلاحهم لقتال الدولة السورية. ومن الطريف فذلكة وتبرير فتح الحدود اللبنانية بأنه «نأي بالنفس» أيام رئاسة ميشال سليمان.

وبالرغم من مآسي السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة ومئات ألوف النازحين السوريين وتمركز الإرهابيين التكفيريّين على طرفي الحدود السورية – اللبنانية، ما زال لبنان يرفض التنسيق مع جارته سورية لما فيه مصلحة البلدين. وتدعم الإدارة الأميركية هذا الموقف لأنها ترفض أيّ تعاون بين كيانات بلاد الشام لأنّ التنسيق في ما بينها يعني ازدياد قوة سورية في مواجهة «إسرائيل».

حاولت الولايات المتحدة الأميركية خلال أعوام الحرب شقّ الجيش على أسس طائفية – مذهبية ولم تنجح لأنّ العقيدة القومية –الوطنية للجيش السوري كانت الأقوى. كذلك تملّك المواطنين للشعور الوطني منع انشقاق موظفي مؤسسات الدولة إلا من أعداد هزيلة لا تمثل فارقاً في موازين القوى، مما يشهد لوطنية السوريين بالرغم من الإغراءات الجمّة المادية والمعنوية التي عُرضت عليهم، وفي ظروف صعبة للغاية لهم ولعائلاتهم.

هذا الصمود لفترة زمنية طويلة سمح بانكشاف الخطة الغربية المرسومة لضرب سورية وخط المقاومة الممتدّ من طهران إلى بيروت. وما دعم «إسرائيل» لـ«جبهة النصرة» إلا الدليل على ارتهان هذه الأخيرة للعدو، وكذلك باشر العديد من قياديي الائتلاف الاعتراف بـ«إسرائيل» والتلويح بأنهم يتخلون عن الجولان في حال تبوّئهم السلطة!

كلما مرّ الزمن تبيّن لنا أنّ هذه الحرب لا علاقة لها بالإصلاح أو الديمقراطية أو التقدّم الاجتماعي ولا حتى بصراع ديني – مذهبي، فهذا الأخير هو بمثابة البروباغندا لاستقطاب الإرهابيّين التكفيريّين الذين يُستعملون كوقود بشري في المعركة، فهم المرتزقة المطلوب انخراطهم في الحرب كي تُهزم سورية وتوقع سلماً مع «إسرائيل» ينهي المقاومة. تمدّدت هذه القوى التكفيرية لتشمل كلّ أقطار المشرق العربي دون أيّ استثناء وهدفها المعلن تدمير كلّ أشكال وأنماط الحضارة التي ترفل بها دول المنطقة.

موقع سورية الجغرافي في غاية الأهمية، فهو يتحكم بشرقي البحر الأبيض المتوسط، كما أنه المدخل إلى آسيا الوسطى التي يعتبر زبيغنيو بريجنسكي مستشار الأمن القومي الأميركي السابق للرئيس جيمي كارتر، أنّ من يحكمها يحكمٍ العالم لثروتها المعدنية والغازية [3]. ثم انّ سورية الطبيعية نمت وازدهرت قديماً لوجودها على «طريق الحريرٍ» الممتدّ من الصين الى أوروبا.

أحد غايات المستعمر إذاً إلغاء السيادة السورية كي يتمكن من استعمال الأرض كممرّ للمواد الأولية من دول آسيا الى الغرب، وبالتالي من أهمّ مهمات الأمن القومي السوري الدفاع عن الموقع الاستراتيجي لسورية ضمن المنظومة الدولية وتحالفاتها بشكل يضمن مصالحها.

الصراع على أشدّه الآن لإلحاق سورية بالمحور الأميركي والغربي. ومن المعروف أنّ شمعون بيريز يعتبر أن لا ضرورة لسيطرة «إسرائيل» بالسلاح على المنطقة اذ يكفي أن تكون الهيمنة اقتصادية [4].

«إسرائيل» تريد أن تبيع الغاز الذي تستخرجه من فلسطين المحتلة الى أوروبا، وكذلك قطر، لكنهما لا تستطيعان ذلك دون المرور في المياه السورية ومنها الىٍ تركيا فأوروبا. لهذا السبب اشتركت قطر في الحرب على سورية كي تثبت نظاماً موالياً لـ«إسرائيل» يسمح بانتقال الغاز. ودعمت الولايات المتحدة هذه الخطة لأنها بذلك تقضي على اقتصاد روسيا التي تغذي أوروبا بالوقود، وآزرت هذا الموقف تركيا العضو فٍي حلف الناتو، والتي تحلم ليس فقط في إعادة أمجاد السلطنة العثمانية، بل أيضاً في مدّ أنابيب غاز عبر أراضيها من دول آسيا الوسطى الموالية للولايات المتحدة الأميركية.

حرب الغاز والنفط القائمة ستقرّر مصير دول كبرى، وسورية في قلب هذه المعركة، فإنْ انتصرت، فازت معها روسيا والصين وبالطبع إيران، الداعم الأكبر للمقاومة، ضدّ الاحتلال الأميركي و«الاسرائيلي».

2 ـ الأمن القومي السوري في مواجهة مشروع التفتيت الصهيوني

محاولة زعزعة الأمن القومي السوري لا تتوقف فقط على الحرب وتسعير نارها بمدّها بالتكفيريّين الوهابيّين، بل تتعدّاها في حال التوقف عن الحرب والبدء بالتفاوض إلى فرض نظام يعتمد على التمثيل الاثني والطائفي في ما يُسمّى «حكومة انتقالية».

على سورية أن ترفض كلّ أشكال «الديمقراطية التوافقية» التي تطالب بها الولايات المتحدة الأميركية، فهذه الأخيرة تطرح مشروعين سياسيين: التقسيم أو التقسيم! فإما التقسيم الى أقاليم اثنية ودينية كما يحدث في العراق، والمحافظة فقط على الشكل الخارجي لدولة عراقية على أساس الفيدرالية أو حتى الكونفدرالية التي هي أسوأ بكثير، أو الانفصال والاستقلال كدول اثنية وطائفية.

تريد الولايات المتحدة الأميركية أن تكسب بالسياسة ما خسرته بالحرب، وتطبيق «الديمقراطية التوافقية» عنوة في العراق وسورية بعد أن تلمّست نجاحها في لبنان في إبقاء البلد بحال شلل دائم، وتحت السيطرة، دون الاضطرار إلى إرسال قوات عسكرية. ولقد نجح بٍول بريمر الحاكم الأميركي للعراق بعد احتلاله في مسعاه بعد أن وضع دستوراً يحاكي التقسيمات الاثنية والمذهبية.

تنطلق «الديمقراطية التوافقية» من فكرة بناء نظام سياسي يمثل الأصول الاثنية والطائفية، إلا أنه قطعاً لا يمثل الشعب. إطلاق تسمية «ديمقراطية» هي تسمية زائفة لأنّ الديمقراطية تعني سلطة الشعب وسلطة المواطنين لا سلطات مختلفة بحسب هوياتها الدينية. انّ أيّ قبول لمبدأ التقسيم الطائفي ضمن المجتمع الواحد يعني القبول بفكرة التمثيل السياسي على أساس الولادة ضمن حيّز طائفي أو اثني، فتنتفي الإرادة الشخصية أو القرار الوطني وتتحوّل الدولة الى حلبة صراعٍ بين «أقليات» و«أكثرية» طائفية لا إمكانية لتغييرها لأنها تقسيمات عمودية، بدلاً من أن تكون الأكثرية هي أكثرية المواطنين الذين يدعمون برامج سياسية واقتصادية واجتماعية في مقابل أقلية تطالب بتنفيذ برنامج آخر.

بمجرّد إرساء قواعد «الديمقراطية التوافقية» يتمّ إلغاء إرادة الشعب الواحد بعزل عناصره بناء على المبدأ الطائفي أو الاثني، وبذلك يتمّ القضاء على الأمن القومي لبلاد الشام وتصبح كلّ فئة تنشد مصالح مرتبطة بالخارج وتعمل ضدّ الفئات الأخرى [5].

تتعرّض المنطقة لتدمير جيوشها عبر إثارة النعرة الطائفية – الاثنية العنصرية بدءاً من الحرب الأهلية في لبنان، ثمّ في العراق، حيث يُقترح إقامة جيش في كلّ إقليم بحسب الهوية الاثنية أو المذهبية، وتنصبّ على سورية موجة تكفيرية عاتية تريد القضاء على الجميع باسم الفكر الوهابي، إلا أنّ الجيش يتصرّف بناء على عقيدته القومية الجامعة لمكوّنات الوطن ويصمد في دفاعه عن هويته وعن مواطنيه في حرب شاملة عليه.

يدفع الغرب الاستعماري باتجاه ما يُسمّيه «الديمقراطية التوافقية» لأنه يريد تفتيت المجتمع والجيش على أسس الطائفة والمذهب والعرق، فالهاجس الأكبر للولايات المتحدة الأميركية ضمان وجود دولة «اسرائيل» الاستيطانية الدينية العنصرية.

3 ـ عروبة سورية

لقد أنجزت سورية الكثير، الكثير خلال السنوات الأربع الماضية من الحرب:

أعادت الحرب على سورية لمّ شمل بلاد الشام بعد مرور مائة عام على تقسيم سايكس – بيكو، فسقطت الحدود المصطنعة المدمّرة للأمن القومي السوري، والتحمت الجبهات كافة فيٍ حربها على الإرهـاب التكفيري لمعرفتها أنّ سقوط إحداها يعني سقوطها جميعاً. فجبهة القلمون وجبهة شبعا، والحدود كلها أصبحت جبهة مشتركة بين سورية ولبنان، مهما كابر الذين يريدون إرضاء الغرب الغازي، وحدود سورية والعراق اضمحلت أمام التعاون للدفاع عن حضارتهم المشتركة في مواجهة غزو يريد إلغاء وجودهم.

لقد تكاتفت القوى الوطنية لدرء خطر الاندثار، وبدأت سورية باستعادة موقعها، فما كان من العدو الصهيوني إلا ضرب رموز التحالف الذي يقودنا إلى الانتصار، فشهدت المقاومة ممثلة بإيران وسورية ولبنان في القنيطرة، التلاحم حتى الاستشهاد لمن ينشد الحرية لسورية بما فيها فلسطين، وأسقطت القناع عن جبهة تعمل لصالح الكيان الصهيوني.

انّ إعادة سورية الطبيعية الى حجمها الطبيعي عبر تعاون دولها لإنشاء جبهة دفاع مشترك، واتخاذ موقف موحد تجاهٍ العدو التكفيري – الصهيوني، يسمح لها بالذوْد عن أمنها وأرضها ودحر العدو بدلاً من الهزيمة المتأتية من تقسيمها، فشرط الانتصار هو التعاون على أساس أنّ كياناتها جسد واحد. وإذا نظرنا إلى الخارطة لوجدناها كتلة كبيرة تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة المطامع الدولية أو المطامع الإقليمية كتركيا و«إسرائيل».

لقد أنهى محور المقاومة فصل المسارات الذي أخضع البلدان العربية للذلّ والانهزام من «كامب دايفيد» الى اتفاقيات «وادي عربة» و«أوسلو».

بادر نتنياهو في التخلي عن قواعد اللعبة القديمة حين هاجم قياديين ينتمون الى إيران وحزب الله ما بعد خط فضّ الاشتباك الفاصل بين سورية و«إسرائيل» في الجولان، مما سمح لمحور المقاومة بالردّ في أيّ مكان وليس فقط في لبنان. وهذا إنجاز كبير سيزيد من قوة المقاومة ومن اتساع حركتها لتصبح مقاومة سورية – فلسطينية – لبنانية تمتدّ على طول الجبهة الشمالية للكيان الصهيوني، وها هي «إسرائيل» تضرب أخماساً بأسداس مخافة فتح جبهتها الشمالية بكامل حدودها من القنيطرة إلى الناقورة بعد تصميم سورية على ترسيخ مقاومة جولانية.

تنشدّ عروبة سورية اللحمة بين جميع مواطنيها وعدم التمييز بين طائفة وأخرى أو مذهب وآخر أو اثنية، فالجميع مواطنون متساوون لهم الحقوق والواجبات نفسها. فعروبة سورية تختلف عن عروبة شمال أفريقيا حيث لا يوجد هذا التنوّع الغزير الاثني والديني المتأتي من الغزوات العديدة التي شهدتها المنطقة على مدار تاريخها الطويل. لذلك من غير الممكن اعتبار أنّ العربي مسلم سني بالضرورة لأنّ سورية الطبيعية تحتوي على عرب مسيحيين، وعشرات المذاهب والملل الإسلامية، كما أنه من غير الجائز اعتبار السوري الوطني بأنّ اثنيته عربية اذ أنّ العديد من المواطنين السوريين هم من أصول مختلفة إلا أنّ اشتراكهم في الحياة ضمن حدود الوطن الواحد يعني أنهم يواجهون مصيراً واحداً. تُفهم العروبة هنا بالمعنى الثقافي الحضاري لا الاثني لأنّ التعصّب الاثني يقودنا الى التفرقة والى حروب أهلية تنتهي بتقسيم الوطن.

العروبة تعني اليوم قبل أيّ شيء آخر العودة الى المفاهيم القومية –الوطنية، أيّ القومية القائمة على الوحدة الجغرافية والعيش المشترك، فهي قومية وطنية علمانية ديمقراطية تحتكم الى الشعب الذي هو مصدر السلطات لا إلى الاثنيات والطوائف. ولبلوغ هذا الهدف على حكومات دول المشرق وضع نصوص قانونية تمنع تشكيل أحزاب من لون طائفي واحد، فما يجمع الأعضاء في الحزب لا يجب ان يكون هويتهم العنصرية بل البرنامج السياسي –الاقتصادي الذي يؤمّن الازدهار لبلدهم.

انّ وضع برامج تتوخّى المصلحة العامة سيطغى على الانقسامات العمودية التي لا طائل منها، كما أنه يوفر أرضية للالتقاء بين هذا الحزب والأحزاب الأخرى التي على شاكلته والمتواجدة في العراق والأردن وفلسطين ولبنان وسورية.

أخيراً، الدعوة الى «ثورة دينية تصحيحية» ملحّ لكنها غير كافية للقيام باستدارة تلغي ثلاثين سنة من التحريض الديني الوهابي الذي دعمته ونشرته الولايات المتحدة الأميركية في أفغانستان لمحاربة الاتحاد السوفياتي. ما هو مطلوب بشكل أساسي إعطاء الأولوية المطلقة، وردّ الاعتبار للمفهوم القومي – الوطني وإعلائه فوق الشأن الديني، لأننا حين نفعل ذلك نكون قد قمنا بعملية دمج العناصر كلها ضمن المجتمع الذي يتطلع باتجاه سؤدده ومصلحة الوطن لا المصالح الخاصة.

ظنت الولايات المتحدة الأميركية أنها بمؤازرتها لحلفائها في المنطقة بدءاً من تركيا، وقطر والسعودية، تستطيع أن تُلحق سورية بالدول العربية التي اعترفت بوجود دولة «إسرائيل»، وأن تُزيل محور الممانعة الذي يترأسه الدكتور بشار الأسد، وتكون بهذا العمل قد أعلنت انتصارها النهائي في القرن الواحد والعشرين. إلا أنّ التطورات الميدانية قضت على أحلام الولايات المتحدة الأميركية، فالجيش والشعب السوريّين استطاعا إيقاف كتلة النار الملتهبة مما جعل لهيبها ينتشر في دول مجاورة وبعيدة.

لقد تلاشت حدود سايكس – بيكو التي طالما جاهدت الولايات المتحدة الأميركية للحفاظ عليها كي لا تقضي سورية الموحَدَة الأهداف على «إسرائيل»، رأس حربة الغرب الاستعماري في المنطقة. عادت سورية الى حدودها الأصلية، وفُتحت جبهة المقاومة على طول الحدود مع الكيان الصهيوني بعد أن كان عملها منحصراً في جنوب لبنان.

بعد تلاشي حدود المستعمر بين سورية ولبنان من جراء التحام حزب الله والجيش السوري في حربهما المشتركة على الإرهـاب التكفيري، وبعد تعاون الجيشين السوري والعراقي في محاربة «الدولة الإسلامية» المنتشرة شمال سوريةِ والعراق معاً، ها هو الأردن يعيش هاجس الإرهاب التكفيري الذي ارتدّ عليه وبالاً بعد أن ظن أنه يستطيع ان يصدّره دون أن تلحق به النار.

لقد اخترقت «الدولة الاسلامية» حدود الدول المشرقية، كما قفزت «إسرائيل» فوق الخط الفاصل في الجولان ظناً منها أنها بصدد التقدّم في مسيرتها الاستعمارية فيما سوريةٍ مشغولة بصدّ الإرهاب. لم تحسب «إسرائيل» أنها بعملها هذا فتحت الباب واسعاً لإضفاء الشرعية لمقاومة سورية، تحت بند الدفاع عن النفس، والذي تكفله المواثيق الدولية، كما أسبغت شرعية لتدخل إيران بعد أن استشهد أحد قادتها على أرض الجولان، باسم الدم المراق، وباسم العدالة والتصميم على إعادة المقدسات الى أهلها.

المعركة طويلة، لكن النصر يلوح لأننا قرّرنا المواجهة.

* محاضرة ألقيت في مؤتمر «العروبة وأسئلة النهضة» في دمشق، في الثامن من آذار 2015.

مصادر

1. بثينة شعبان، عشرة أعوام مع حافظ الأسد، 1990 – 2000. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2015، صفحة 37: «إن أي أذى يصيب العراق هو أذى يصيب سورية والأمة العربية جمعاء».

2. Alisson Weir, «Against Our Better Judgment» Canada, Vancouver, 2014.

3. Zibigniew Brzezinski, The Grand Chessboard, New York: Basic Books, 1997, p. 31.

4. «Shimon Peres, «The New Middle East London: Henry Holt and Co., 1993, p. 139.

5. راجع مقالتي «الديمقراطية التوافقية نظام الدولة الفاشلة»، جريدة الأخبار، 29 يناير 2015.

خريف السياسة... موسم لسقوط الأوراق الصفراء!

■ محمد ح. الحاج

لكلّ زمان خريفه، وللسياسة خريفها، وإذا كان خريف الأشجار يدفع بأوراقها إلى الاصفرار والسقوط، فخريف السياسة أشدّ قسوة ومرارة، ولا يكتفي بسقوط الأوراق بل يأخذ مَن رسم على الأوراق أو حملها وتاجر بها، وهكذا سقطت في خريف سياسة المشرق أوراق كثيرة، وحملة أوراق كثر لم يكن أولهم ولا آخرهم ساركوزي وبلير، والحبل على الجرار.

العام الخامس من العدوان الدولي على الشام يحمل معه رياحاً خريفية سوف تتكفل بإسقاط ما بقي من أوراق حملت شعارات براقة، وآمال كاذبة، شعارات الحرية والثورة السلمية والإنسانية والتي لم يطل بها الوقت فانكشف زيفها وسقطت في حينه، أما الورقة التي استمرّت طويلاً فهي التي حملت آمال إسقاط النظام وفقدانه الشرعية بادّعاء الكثير من الدول ومنها بريطانيا وفرنسا وتركيا والإدارة الأميركية وتوابعها في المنطقة المشرقية، أغلبهم حملوا الورقة وتاجروا بها سقطوا الواحد تلو الآخر، سواء في أوروبا أو بين إتباع اليانكي ومَن يدور في فلكهم، واستمرّوا على الأمل ردحاً طويلاً من دون أن يخلعوا النظارة السوداء التي حجبت الحقائق عن أعينهم وكأنهم يعيشون في عالم آخر.

بـدا واضحـاً أنّ التطورات على أرض الواقع لم تدفع بأطراف المؤامرة إلى إعادة القراءة واستدراك الخطأ، وكانوا على الأرجح بانتظار القرار الذي يصدر عن المحفل الأعظم ليلتزموا به، إذ لا أحد من هؤلاء له الحقّ بالقراءة أو الكتابة بل بترديد اللازمة، وكان الإعلام المضلل، وأغلب المضلّل في أعلى درجات الهجوم مستمرئاً الإثارة التي توفرت لها كلّ الشروط بما في ذلك الإبداع (إخراجاً وتسويقاً) على كل المستويات، وهو ما أنجز بيئة قابلة، وبعضها كان الحاضنة لإرهاب تمّ التخطيط له بعيداً عن الأعين المفتوحة والآذان المصغية، وهكذا تمّت شيطنة الإدارة الحاكمة في الشام، بل وشيطنة الجيش وكأنه ليس من هذا الشعب، الشعب الذي وعى بغالبيته أبعاد اللعبة وأعلن رفضه لمجرياتها معلناً وقفة صمود واعتزاز بجيشه وقيادته، رافضاً أن يمثله الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا أزلاماً وأتباعاً لجهات خارجية تعمل على هدم الوطن، ومنهم من ارتمى في أحضان العدو الصهيوني رغم إدراكهم أنّ الشعب السوري يرفض التبعية لصديق فكيف يقبل بارتباط من يمثله ويدّعي النطق باسمه بالعدو...؟

يعود الأميركي اليوم معلناً أنّ الشرعية التي قال بنزعها عن رأس الدولة السورية لم تسقط، وأنّ الحلّ لا يكون عسكرياً وهذا متفق عليه عالمياً، ويؤكد بكلام صريح: لا بدّ من الحوار مع الأسـد...! لكن هذه الشهادة ليست من يعيد الشرعية إلى الأسد القائد وهو لم يفقدها أساساً، بل إنّ الشعب وفي ردّه على وصاية يحاول الغرب فرضها، هو من حافظ على شرعية النظام والقيادة، وهو من قال كلمة الفصل منذ البداية، ولولا ذلك لما تراجع العمّ سام معلناً أنه أخطأ التقدير بطريقة مواربة، المضحك أن تستمرّ الدول التابعة على موقفها معلنة أن «لا دور للأسد في مستقبل سورية»! وكأنّ لفرنسا وبريطانيا وتركيا حق تقرير مصير شعب عريق لفظهم كما لفظ سياساتهم منذ عقود، أو كأنّ ذاكرة القيادات في هذه البلدان تمّ مسحها ونسوا التاريخ، ولا بدّ للشعب السوري أن يعيد إليهم الذاكرة المفقودة... ورقة صفراء تسقط لاحقة بما سبق.

في قديم الزمان كان يُقال القارة العجوز، والامبراطورية العجوز، وأكثر من استخدم المصطلحين كان العمّ سام في سخرية من المستعمر البريطاني الذي خرج مدحوراً... وما كانت بريطانيا وحدها مقصودة بشعار القارة العجوز، بل معها فرنسا وربما إيطاليا وهولندا وكلّ الدول التي ساهمت في النظام الكولونيالي القديم، فهل من يصدّق اليوم بأنّ بعض الورثة يمكنهم الخروج على وحيد القرن ويعلم الجميع أنهم مجرّد «صوت سيده»، ربما هو توزيع الأدوار، لكن عند رفع الكشتبان... تظهر الحقيقة، ويطأطئ أصحاب الصوت العالي ليلتحقوا بأوراقهم الساقطة.

على ذكر الامبراطوريات، تنطح أحدهم (من بيروت)، وهو أيضاً «صوت سيده» معلناً رفضه قيام امبراطورية ايرانية «أو فارسية» كما يقول، مستشهداً بقول مسؤول إيراني بأنّ إيران منعت سقوط أربع عواصم عربية في يد الإرهاب الداعشي (الوهابي) معتبرا أنها استولت على هذه العواصم...! هل يدافع بذلك عن المهزوم لأنه من أصحاب الحلم الذي لم يكتمل، أم لأنه تربّى على ثقافة لا يستطيع الخروج من عباءتها البالية رغم ما لحق بها من «هريان وشقشقة»؟ أما الناطق في بلاد أسياده فقد قال إنّ «داعش» توفر لإيران الذريعة لاستثمارها في مشروعها وهي غير جادّة في محاربتها...! عجيب، وهل إيران هي مَن أوجدت «داعش» واتخذت منها وسيلة لاجتياح دول المنطقة...؟ وكيف يعمل التحالف على تخريب مناطق «السنة»؟ أتكون «داعش» هي المدافعة عن هذه المناطق؟ أم أنها البادئة في عمليات التخريب والقتل... ذبحاً، وتقطيع أوصال، ويتوفر لها إخراج هوليودي مع سرعة التوزيع والتوصيل وبأفضل التقنيات لدبّ الذعر في أوساط من يعارض، ورفع معنويات من يتلقى الضربات والهزائم في الميدان وشدّ أزرهم ببعض من يقع في فخ التضليل الإعلامي والوهم بدولة خلافة إسلامية (وربما هو من بسطاء المسلمين)... ورقة صفراء... تسقط قريبا.

قـامـوس الثقافة السطحية المشرقية يتقبّل قيام امبراطورية أميركية – وهي قائمة بأشكال شتى على امتداد الأرض العربية – أو امبراطورية بريطانية أو فرنسية، وحتى تركية أو ألبانية دون اعتراض أو ذكر أو احتجاج، لكنهم يفبركون قيام امبراطورية فارسية – وهي لم تقم – أو يتهمون إيران بالمحاولة رغم أنّ حقيقة ما تقوم به إيران هو الدفاع عن المنطقة في وجه أطماع الغرب وسيطرته، وأنها تعلن موقفاً واضحاً تجاه دول الجوار لا يقوم على مذهبية أو تفرقة، بل وصل بهم الأمر حدّ إعلان التخوّف من قنبلة نووية إيرانية محتملة...! متجاهلين وجود أكثر من مائتي قنبلة نووية بيد العدو الصهيوني الذي لم يكتم عداءه للمحيط وأنه لو تعرّض لخطر سيبادر إلى مسح العواصم العربية والإسلامية من الوجود بجزء مما يملك، ولن يتورّع عن ضرب عواصم دول أخرى قد تفكر في الوقوف إلى جانب السوريين أو العرب... أوليس هذا بكاف لمعرفة أنّ من يعمل على استبدال العدو الحقيقي بعدو آخر هو العدو ذاته عن طريق أتباعه ومناصريه وأغلبهم أصبح مكشوفاً لشعبه وعالمه، ولكلّ ذي عقل وبصيرة، وأن إيقاظ المذهبية (شيعية وسنية) هي تصميم دولي ماسوني وتنفيذ أياد أغلبها محلية توجهها أصابع لم تعد خفية أبداً... مسكين هذا العقل المشرقي وقد تأبط غفلته ميمّماً شطر الهلاك، معتقداً أنه سيدخل الجنة مجاهداً...! بئس الورقة الصفراء التي لم تسقط حتى اللحظة.

أدرك الغرب بواقعية التحليل والدراسة أنّ الدولة الإيرانية عصية على الخضوع وأنها ماضية في مسارها لتكون شوكة في حلق هذا الغرب، فكان إبداع مراكز أبحاثه ودراساته، الفتوى بإيقاظ الفتنة التي مضى عليها 1400 عام... من قال إنها نائمة...؟

شجرات مجلس الطبول، وإتلاف الدوحة، وتنظيم باريس، كلها اصفرّت أوراقها، بعضها سقط، وبعضها ينتظر، وما بدّلوا، كفيلهم «الأخضر».

ورقة كبيرة بدت واعدة مطلع العام المنصرم، جرى عليها رهـان واسـع... إرهـاب القيصر قد يدفع به إلى المساومة والتراجع...! بعد تجارب عديدة هنا وهناك، بدا أنّ القيصر حازم أمره على المجابهة، وأنه يأخذ الأمور بجدية بالغة... يستعرض ما بين يديه ملوّحاً، كما فعلوا... يبدو أنّ الخوف يتسرّب إلى المراهنين، همسوا لأنفسهم: لنتراجع فاللعبة أكبر من المقدرة، القيصر يخاطب قواته من على ظهر طراد بثقة وحزم... قلنا: هل هي حرب قرم جديدة...؟ ربما يقول القيصر: لتكن حرب قرم أو قرن، لكنه يرفض الخوف ولا يعرف كيف يطأطئ رأسه كما بعض العربان.